علاقة العدالة بالعبادة في رسائل النور

أ.د.محمد الروكي
مجمع الفقه الإسلامي الدولي
المملكة العربية السعودية

تمهيد:

يتميز بديع الزمان النورسي بفكره القرآني الذي أودعه في رسائل النور، وعرضه بطريقته البديعة ومنهجه الفريد، مرسلا خطابه فيه إلى العقل والقلب والفطرة، معتمدا عنصر التحليل والتمثيل، والتتبع والاستقراء والتعليل، والموازنة والمقارنة، ونصب الأدلة النصية، والحجج العقلية، والشواهد الكونية، ملتزما في ذلك بعرض المقدمات القطعية، ورصد النتائج الحتمية.. إلى غير ذلك من خصائص منهاجه الذي ينفذ به إلى الأعماق، ويخترق به الآفاق، وفي هذا البحث تأملات ونظرات عامة مجملة عن العبادة والعدالة في فكر النورسي وعلاقة بعضهما ببعض، جنيت قطوفها من حديقة رسائل النور، قاصدا بعرضها تثوير فكر النورسي والدلالة على باب مدرسته ليطرقها الباحثون، ويدخلها الراغبون، وينهل من معينها العاشقون. وقد قسمته - على وجازته وإجماليته - إلى مبحثين:

المبحث الأول: العبادة والعدالة في ظلال رسائل النور.

المبحث الثاني: وجوه العلاقة بين العبادة والعدالة في رسائل النور.

المبحث الأول: العبادة والعدالة في ظلال رسائل النور.

الحديث عن العبادة والعدالة مبسوط عند النورسي في رسائل النور غاية البسط، ومبثوث في فقراتها انبثاث العصب في الجسم. وكل ما بسطه وبثه فيها استقاه من نبع القرآن الصافي، وعرضه بطريقته البديعة الفريدة. ويستطيع الناظر في رسائل النور، المتأمل في فصولها وفقراتها أن يتذوق معنى العبادة والعدالة وعلاقة بعضهما ببعض،

فالعبادة في فكر النورسي تأخذ مفهوما أوسع وأرحب مما يتصوره من يجعلها منحصرة في الصلاة والصيام والحج وغيرها من شعائر الدين، فهذا عنده إنما هو جزء صغير من حقيقة العبادة التي تشمل الدين كله.

العبادة عند النورسي في أعلى مراتبها وأعمق معانيها وأوسع نطاقها هي العبودية مع المحبة؛ عبودية خالصة مبعثها حب الله تعالى وشكره على نعمه التي لا حصر لها.[١] عبودية ليس فيها شائبة القهر والجبر والإكراه الخارجي، بل تنبع من قلب المؤمن الذي يرى بنور الإيمان أثر نعم الله عليه وعلى من حوله فيفيض محبة صادقة لربه المنعم عليه، محبة تدفعه إلى الطاعة والانقياد: "إن المحب لمن يحب مطيع" عبودية طوعية ينشئها العبد بمحض إرادته واختياره [٢]، فتتكامل مع عبوديته الاضطرارية المغروزة فيه، وهذا هو المقصد الأكبر من وضع الشريعة للعباد: "أن تخرج المكلف من داعية هواه ليكون عبدا لله اختيارا كما أنه عبد لله اضطرارا". [٣]

والعبادة عند النورسي تستمد نصاعتها وإشراقها وقوتها من الدين القويم وكتاب الله الحكيم، فقد جعل الله دينه فهرس كمالات جميع عباده المقبولين، ومنهجا قويما لأفعال العبودية...، وجعل البشرية محتاجة إلى دينه وشريعته وحقائقه التي أتى بها في الإسلام، حاجتها إلى الرحمة والحكمة والعدالة والغذاء والهواء والماء [٤]

وشرط العبادة عند النورسي اقترانها بالعمل الصالح الذي يصدقها [٥]، وهي بذلك تنور القلب والبصيرة، وتجعل العابد يرى ما حوله بنور الله، لا بهواجس الشيطان، يقول النورسي في تقرير ذلك: "يا هذا لقد جننت! فإن ما في باطنك من الشؤم انعكس على ظاهرك، بحيث أصبحت تتوهم أن كل ابتسامة صراخ ودموع، وأن كل تسريح وإجازة نهبٌ وسلبٌ، عد إلى رشدك، وطهر قلبك.. لعل هذا الغشاء النكد ينزاح عن عينيك، وعسى أن تبصر الحقيقة على وجهها الأبلج، فإن صاحب هذه المملكة ومالكها وهو في منتهى درجات العدل والمرحمة والربوبية والاقتدار والتنظيم المبدع والرفق.. وإن مملكة بمثل هذه الدرجة من الرقي والسمو مما تريك من آثار بأم

---

(١) انظر الشعاع السابع ص: ١٧١.
(٢) انظر الكلمة السادسة والعشرون ص: ٥٤٥.
(٣) انظر الموافقات للشاطبي: ١٢٠/٢.
(٤) الشعاع الخامس عشر ص: ٦٦٧.
(٥) انظر الشعاع السابع ص: ١٧١.

عينيك... لا يمكن أن تكون بمثل ما تريه أوهامك من صور" [٦] فانظر إلى كلامه العذب الرقراق، كيف بين فيه أن ما ينعقد عليه قلب الإنسان، ينعكس على ظاهره في واقعه ورؤيته إلى ما حوله، فإذا انعقد قلبه على الإيمان بالله وعبادته وحبه وطاعته، انعكس ذلك على ظاهره بالرضا والسكينة والطمأنينة، فتتحرك جوارحه متأثرة بهذه المعاني والقيم فيقع له إدراك الأمور على حقيقتها..وإذا انعقد قلبه على أوهام الشيطان وما تمليه النفس الأمارة بالسوء، انعكس ذلك على ظاهره فرأى الأمور على غير ما هي عليه، وأبصر ما حوله على عكس ما يجب.. وهو خلل لا يقيمه إلا العودة إلى الرشد، وتطهير القلب من هذه الهواجس والأوهام، و لا يكون ذلك إلا بالعبادة المشرقة المحركة إلى الأسمى..

وكما أن العبادة نور القلب وضياء البصيرة، فهي كفيلة بإيصال صاحبها إلى مبلغ القوة والتمكن والظهور وحسن الاستخلاف في الأرض، وهذه معان وصفات تحققت في الأنبياء بشكل بيّنٍ قوي، لأنهم أرسخ في العبادة وأثبت وأقوى. و كل من أخذ بأسباب ذلك من عامة الخلق وصل منه إلى ما يسره الله له من غاية، يقول النورسي في ذلك على لسان الله عز وجل: "يا بني الإنسان ! لقد سخرت لعبد من بني جنسكم، عبد خالص مخلص، سخرت له مخلوقات عظيمة في ملكي، و أنطقتها له، و جعلتها خداما أمناء وجنودا مطيعين له كي تعصم نبوته، و تصان عدالته في ملكه ودولته، وقد آتيت كلا منكم استعدادا ومواهب ليصبح خليفة الأرض، وأودعت فيكم أمانة عظمى، أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، فعليكم إذاً أن تنقادوا و تخضعوا لأوامر من بيده مقاليد هذه المخلوقات وزمامها لتنقاد إليكم مخلوقاته المبثوثه في ملكه، فالطريق ممهد أمامكم إن استطعتم أن تقبضوا زمام تلك المخلوقات باسم الخالق العظيم، و إذا سموتم إلى مرتبة تليق باستعداداتكم ومواهبكم..." [٧] فانقياد العبد لمولاه جل وعلا هو السبيل إلى أن ينقاد له ما شاء الله من خلقه، وبقدر ما عظم الانقياد الأول يعظم الثاني تبعا له.

وتقترن العبادة في جملة ما تقترن به –في رسائل النور- بالعدالة، وهي في الإنسان أثر من آثار العبادة وتجلياتها عليه، يقتبس شعاعها من أنوار عدالة الله التي هي من تجليات اسمه (العدل) الذي استقام به الكون، وصلح له أمر السموات والأرض

(٦) الكلمة الثانية ص ١٠.
(٧) الكلمة العشرون ص: ٢٨٧.

واعتدلت به الكائنات، واتزنت به الموجودات، و اتسقت به المخلوقات، فأخذت حظها المقدر لها من الجمال، ونصيبها الميسر لها من الجلال... يقول النورسي: "إن العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الأعظم لاسم (العدل) إنما تدير موازنة عموم الأشياء وتأمر البشرية بإقامة العدل" [٨] ويقول أيضا: "لقد ضم العدل الإلهي جميع موجوداته تحت جناح ميزانه ويديم موازنة الأجرام العلوية والسفلية ويعطيها التناسب والتلاؤم الذي هو أهم أساس للجمال ويجعل كل شيء في أفضل وضع وأجمله، ويعطي كل ذي حياة حق الحياة فيحق الحق ويحد من تجاوز المعتدين ويعاقبهم..فشاهد الجمال الباهر، جمال هذه العادلية الإلهية". [٩]

ومن تجليات عدل الله تعالى: حماية أوليائه ورسله، و تمكينهم من تبليغ دينه وإقامته وحفظه. يقول النورسي: "إننا نشاهد بأعيننا في هذا الكون أن من عادة الربوبية الجارية في كل آن بالعدالة والحكمة والعناية، حماية الأبرار، وتأديب الكذابين الفاسدين، نشاهدها ضمن تصرفاته الفاضلة جل جلاله، فبمقتضى أفعاله الرحمانية إنزال القرآن المعجز البيان على محمد ρ.. وإظهار أنواع المعجزات الكثيرة البالغة نحو ألف معجزة على يديه.. وحمايته له تحت جناح رأفته الشفيقة في كل حالاته بل في أخطر أوضاعه حتى حمايته بالحمام والعنكبوت !.. وتوفيقه توفيقا معززا في مهامه.. وإدامة دينه بجميع حقائقه..". [١٠]

ومن تجلياته أيضا: وضع الميزان في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فليقوم الناس بالقسط كما يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥). وقوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٧-٨-٩). وشريعة الله التي يقام بها القسط، مبناها على العدل والرحمة والحكمة، وكل مسألة خرجت عن العدل والرحمة والحكمة فليست من الشريعة[١١].. فعدل الله متجل في شريعته وأحكامها كلها حتى في الدقائق التي قد تبدو لبعض الأفهام مجافية للعدل، كتوريث الذكر مثل حظ الأنثيين، يقول النورسي في ذلك وهو يقرر اطراد عدل الله في حكمه: "إن الحكم القرآني: ﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾

---

(٨) اللمعة الثلاثون ص: ٥٢٦.
(٩) الشعاع الرابع ص: ٩٠.
(١٠) الشعاع الخامس عشر: ٦٦٧.
(١١) انظر إعلام الموقعين لابن القيم ٣/٣.

(النساء: ١٧٦) محض العدالة وعين الرحمة في الوقت نفسه، نعم إن ذلك الحكم عدالة، لأن الرجل الذي ينكح امرأة يتكفل بنفقتها كما هو في الأكثرية المطلقة.أما المرأة فهي تتزوج الرجل وتذهب إليه، و تحمل نفقتها عليه، فتلافي نقصها في الإرث.". [١٢]

وأما في الآخرة فليقوم الجزاء وتوفية الخلق أعمالهم ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء آية: ٤٧). فالجزاء والجنة والنار أثر من آثار عدل الله "وهل يقبل العقل أن يعطي للإنسان أجرة دنيوية زهيدة زهادة شعرة واحدة مع أنه أناط به وبحواسه مهام ووظائف هي بعدد شعرات رأسه ؟ فهل يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل الذي لا معنى له ولا مغزى خلافا لعدالته الحقة، و منافاة لحكمته الحقيقية ؟ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا" [١٣] إنه هو الذي "خلق الجنة والنار والصراط والميزان الأكبر لأجل تجليات وتحقق العدالة والحكمة والرحمة التي هي أهم أساس للربوبية"[١٤]. وخلود الكافر في النار لا يتنافى مع هذه العدالة الإلهية، يقرر النورسي ذلك ويحللّه بلغة الرياضيات الدقيقة فيقول: "ما دام الكفر تعديا على حقوق غير محدودة، و تجاوزا فاضحا فهو - إذاً- جناية غير محدودة، لذا يجعل صاحبه مستحقا لعذاب غير محدود، فلئن كان القتل الذي يحدث في دقيقة واحدة يذيق القاتل خمس عشرة سنة من العذاب (ما يقارب ثمانية ملايين دقيقة) و يعتبر ذلك موافقا للعدالة البشرية، وعَدَّته موافقا للمصلحة العامة وحقوقها، فلا جرم أن دقيقة واحدة من الكفر المطلق - على اعتبار الكفر ألف قتل - تقابل إذن بعذاب يقرب من ثمانية مليارات من الدقائق، على وفق تلك العدالة الإنسانية، فالذي يقضي سنة كاملة من عمره في الكفر إذاً يستحق عذاب بليونين وثمانمائة وثمانين مليارا من الدقائق..." [١٥]

ومن النفحات الربانية في الفكر النورسي: أنه يستدل بصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى التي منها (العدل) على ضرورة قيام الآخرة، فهو يقرر هذه الفكرة في رسائله، فيقول - مثلا -: "... لأن وجوده سبحانه وتعالى، وصفاته الجليلة، وأغلب أسمائه الحسنى، و شؤونه الحكيمة وأوصافه المقدسة أمثال الربوبية والألوهية والرحمة والعناية والحكمة والعدالة، تقتضي جميعها الآخرة وتلازمها، بل تستلزم وجود عالم

(٤)

(١٢) المكتوب الحادي عشر ص: ٤٨. .
(١٣) الكلمة العاشرة، ص ٨٩.
(١٤) الشعاع الحادي عشر ص ٢٩٩.
(١٥) الشعاع الحادي عشر ص ٢٨٩.

البقاء بدرجة الوجوب، وتطلب الحشر والنشور للثواب والعقاب بدرجة الضرورة أيضا".[١٦]

ويمضي في تقرير ذلك وبيان أن العدالة الإلهية المطلقة محلها: الآخرة، وزمانها: يوم يقوم الناس لرب العالمين، يقول: "وبمجيء الآخرة ووجودها تتحقق كمالاته وتصان من السقوط، وتسود عدالته المطلقة، وتنجو من الظلم، و تتنزه حكمته العامة وتتبرأ من العبث والسفاهة، و تأخذ رحمته الواسعة مداها، وتنقذ من التعذيب المشين، و تبدو عزته وقدرته المطلقتان وتنقذان من العجز الذليل، وتتقدس كل صفة من صفاته وتتجلى منزهةً جليلة". [١٧] ثم يعلل ذلك فيقول: "فلابد ولا ريب مطلقا أن القيامة ستقوم، وأن الحشر والنشر سيحدث، وأن أبواب دار الثواب والعقاب ستفتح... كي تتحقق أهمية الأرض ومركزيتها، وأهمية الإنسانية ومكانتها... ولكي تتقرر عدالة رب الأرض والإنسان وحكمته ورحمته وسلطانه... ولكي ينجو الأولياء والأحباء الحقيقيون والمشتاقون إلى الرب الباقي من الفناء والإعدام الأبدي... و لكي يرى أعظمهم وأحبهم وأعزهم ثواب عمله، ونتائج خدماته الجليلة التي جعلت الكائنات في امتنان ورضًى دائمين.. ولكي يتقدس كمال السلطان السرمدي من النقص والتقصير، وتتنزه قدرته من العجز، و تتبرأ حكمته من السفاهة وتتعالى عدالته عن الظلم". [١٨]

وفي مقابلة أن العدالة التي تسود في الآخرة هي عدالة الله المطلقة، فإن عدالة الإنسان نسبية، ومحلها في الدنيا التي يعتبرها النورسي بعيدة كل البعد عن أن تكون محلا لمثل هذه العدالة والحكمة بما يخص هذا الإنسان المخلوق لحياة أبدية، فلابد من جنة أبدية، ومن جهنم دائمة، للعادل الجليل ذي الجمال، وللحكيم الجميل ذي الجلال [١٩]. والإنسان الذي يقضي حياة قصيرة في هذه الدنيا الفانية، لا ينال ولن ينال حقيقة مثل هذه العدالة، و إنما تؤخر إلى محكمة كبرى، حيث تقتضي العدالة الحقة أن يلاقي هذا الإنسان الصغير ثوابه وعقابه لا على أساس صغره، بل على أساس ضخامة جنايته، و على أساس عظمة مهمته. [٢٠]

---

(١٦) الكلمة العاشرة، ص ١١٠.
(١٧) الكلمة العاشرة، ص ١١٣.
(١٨) الكلمة العاشرة، ص ١١٣.
(١٩) الكلمة العاشرة، ص٧٠.
(٢٠) الكلمة العاشرة، ص ٦٩.

إن التزام الإنسان بالعدالة في حياته الدنيا، واقتباسه إياها من أنوار العدل الإلهي، في أحواله كلها، يجللّه بتجليات ربانية منجية، ويفيض عليه من آثارها الحميدة الطيبة، فيبتعد عن هرج الدنيا ومرجها وفتنتها، ويتمتع براحة البال، واطمئنان القلب وسكينة النفس، يقول النورسي وهو يبين أثر إقامة الإنسان العدل: "إن الحاكم العادل يجد لذة ومتعة ورضى عندما يأخذ حق المظلوم من الظالم، و يجعل الحق يأخد نصابه، ويفتخر لدى صيانته الضعفاء من شرور الأقوياء، ويسر لدى منحه كل فرد ما يستحقه من حقوق...كل ذلك من مقتضيات الحاكمية والعدالة وقواعدها الأساس"[٢١]. ثم هو بعد ذلك يستقر على الاستقامة والانضباط، ويمنح القوة والنصر والقبول في الأرض[٢٢].

المبحث الثاني: وجوه العلاقة بين العبادة والعدالة في رسائل النور

ما من مقام عرض فيه النورسي حديثا عن العبادة إلا وربطها فيه بالعدالة، تصريحا أو تلميحا، نصا أو إيماء وتنبيها، مما يدل على تلازمهما وعدم انفكاك بعضهما عن بعض، سواء كان المقصود بالعدالة العدالة الإلهية المطلقة أو العدالة الإنسانية المقتبس شعاعها من أنوار تجليات العدالة الربانية، ويستطيع قارئ رسائل النور، المتدبر في مضامينها أن يكشف عن وجه العلاقة بينهما فمظاهر هذه العلاقة ووجوهها كثيرة عند النورسي منها على سبيل المثال:

أولا: العبادة والعدالة من مقاصد القرآن

يقرر بديع الزمان النورسي في مواطن كثيرة من رسائل النور أن العدل مع العبودية من مقاصد القران، وقد تقدم ما يفيد أن العبادة قوامها العبودية مع المحبة، فالتعبير عن العبادة بالعبودية هو من باب التعبير عن الشيء بأبرز ما فيه، و لذلك فقد يطلق العبودية مرادا بها العبادة، لأنها لا تتحقق إلا بها. وعن اعتبار العبادة والعدالة من مقاصد القران يقول النورسي في معرض حديثه عن السور المطولة والمتوسطة واستيعابها لمقاصد القران الكلية الكبرى بمجموعها: "إن أغلب السور المطولة والمتوسطة – التي كل منها كأنها قرآن على حدة – لا تكتفي بمقصدين أو ثلاثة من مقاصد القرآن الأربعة (وهي: التوحيد، النبوة، الحشر، العدل مع العبودية) بل كل منها يتضمن ماهية القرآن كلها،

(٢١) اللمعة الثلاثون، ص: ٥٨٨.
(٢٢) انظر الشعاع الخامس عشر، ص: ٦٦٢. .

والمقاصد الأربعة معا..."[٢٣]. ومراده: أن هذه المقاصد الأربعة الجامعة للدين كله عقيدة وتشريعا وأخلاقا، إيمانا ونية وعملا، يرد الحديث عنها إجمالا و تفصيلا مجتمعة بأربعتها في هذا القسم من سور القرآن، وهو المسمى بالطُّوَل والمئين، دون المفصل منها، ولا يعني بهذا أن السور غير المطولة و المتوسطة - وهي سور المفصل بمراتبها الثلاث - لا ورود فيها لشيء من المقاصد الأربعة التي منها العدل مع العبودية، بل إنها لا تخلو من ذلك أبدا، لكنها في الغالب لا تشتمل إلا على بعضها لا على كلها.

وإذاً التي فالعبادة مادتها وقوامها العبودية، وثيقة الصلة بالعدالة حتى إن ورودهما جنبا إلى جنب في القرآن الكريم، مقصد من مقاصده الكلية الكبرى التي يقوم عليها بناؤه، فهذه المعية والمصاحبة المطردة في القرآن بين العبادة والعدالة، دليل على قوة العلاقة بينهما، ووجهها: اشتراكهما في كونهما من مقاصد القرآن الكلية التي هي أصل لما سواها، لا فرق في ذلك بين علاقة العبادة بالعدالة الإلهية، و علاقتها بالعدالة الإنسانية، لأن الأولى أصل للثانية، و لأن العبادة من لوازم العدل الإلهي، كما أنها ملزوم العدل البشري الذي هو لازم عنها، و سيتضح ذلك في الوجوه اللاحقة.

واعتبار العدل مع العبودية مقصدا من مقاصد القرآن، أمر توصل إليه النورسي عن طريق الاستقراء والتتبع، كما هو الشأن عنده في مثل هذه النتائج والمقررات العظيمة، يؤيد ذلك ويصدقه أن كلا من العبادة والعدل قد ورد في القرآن الكريم على أنه من مقاصد الشرع الكلية الكبرى، ففي العبادة يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: ٥) ويقول أيضا: مقررا أنها القصد من خلق الجنة والناس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) وفي العدل يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (الأنعام: ١٥٢) ويقول أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى....﴾ (المائدة: ٨)

ثانيا: العبادة تؤخذ عن الرسل، و إرسالهم وحمايتهم من عدل الله تعالى

هذا وجه آخر من وجوه علاقة العبادة بالعدالة، وهو أن العبادة الصحيحة لا تكون إلا بالتلقي عن الله تعالى بواسطة رسله، وأن إرسال هؤلاء الرسل وحمايتهم لتبليغ شرع الله هو من عدل الله الذي أشرقت له الأرض وقامت به الأشياء، يقول

(٢٣) الكلمة الخامسة عشرة، ص ٥٣٣. الشعاع الحادي عشر، ص ٣١٠.

النورسي: "وكذا نشاهد من حيث أفعال ربوبيته جل وعلا أن متصرف هذا العالم ومدبر شؤونه جعل رسالة محمد ρ شمسا معنوية للكون، فقد أثبتُّ في رسائل النور: أنه بدد بها جميع الظلمات مظهرا بها حقائق الكون النورانية، وأبهج ذوي الشعور قاطبة، بل الكون بأسره بشارة الحياة الباقية..."(٢٤). وما كان ليتم شيء من ذلك لولا الإرسال، وما كان ليستمر إلى بلوغ الغاية لولا الحماية والحفظ والعصمة. وقد سبق إيراد قول النورسي رحمه الله: "إننا نشاهد بأعيننا في هذا الكون أن من عادة الربوبية الجارية في كل آن بالعدالة والحكمة والعناية، حماية الأبرار وتأديب الكذابين الفاسدين، نشاهدها ضمن تصرفاته المنتظمة جل جلاله، فبمقتضى أفعاله الرحمانية إنزال القرآن المعجز البيان على محمد ρ.. وإظهار أنواع المعجزات الكثيرة البالغة نحو ألف معجزة على يده.. وحمايته له تحت جناح رأفته الشفيقة في كل حالاته بل في أخطر أوضاعه حتى حمايته بالحمام والعنكبوت!..وتوفيقه توفيقا معززا في مهامه.. وإدامة دينه بجميع حقائقه.." (٢٥)

ثالثا: عدل الله متجلٍّ في أحكام شريعته التي بها تكون العبادة

تقدم أن القصد الأكبر من وضع الشريعة للعباد هو إخراجهم من داعية الهوى والشيطان، إلى داعية الرحمن ليكونوا عبادا لله بالاختيار، كما أنهم عبيده بالاضطرار، فالشريعة هي الكفيلة بأحكامها وقيمها أن تربي المخاطبين بها على تحرير عبوديتهم لله واستقامتهم على أمره. و معنى هذا: أن الالتزام بها، وحمل النفس على أحكامها، هو عين العبادة، لأن عدل الله تعالى متجلٍّ في كل أحكامها، فالاستقامة عليها استقامة على عدل الله الذي أشرقت له الظلمات وقامت به الأرض والسموات.

رابعا: العدالة الإلهية تستلزم العبادة

هذا وجه آخر من وجوه علاقة العبادة بالعدالة، ذلك أن عدالة الله وحكمته وعنايته ورحمته هي عناصر أساسية لقيام الكون عند النورسي، وهي "عناصر قوية شاملة كالنور والهواء والماء والتراب، وإنكار وجودها الظاهر ظهور تلك العناصر، لأنه من المعلوم أن هذه الدنيا وما فيها لا تفي لظهور تلك الحقائق، لو لم يكن هناك في مكان آخر ما هو أهل لها فيجب إنكار هذه الحكمة الموجودة في كل شيء أمامنا - بجنون من ينكر الشمس التي يملأ نورها النهار - وإنكار هذه العناية التي نشاهدها دائما في

(٢٤) الشعاع الخامس عشر: ص٦٦٦.
(٢٥) الشعاع الخامس عشر: ص٦٦٧. .

أنفسنا وفي أغلب الأشياء، و إنكار هذه العدالة الجلية الظاهرة الأمارات، وإنكار هذه الرحمة التي نراها في كل مكان. وكذلك يلزم أن يعتبر صاحب ما نراه من الإجراءات الحكيمة والأفعال الكريمة والآلاء الرحيمة (حاش لله ثم حاش لله) لاهيا لاعبا ظالما غدارا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وما هذا إلا انقلاب الحقائق بأضدادها، وهو منتهى المحال، حتى السوفسطائيون الذين أنكروا وجود أنفسهم لم يدنوا إلى تصور هذا المحال بسهولة"[٢٦]. وإذاً فعدالة الله تعالى آثارها مدركة بالعقل والقلب، وظلالها مرئية رأي العين، ملموسة محسوسة، وإذا دلت الدلائل القاطعات، والبراهين الساطعات، على انبثاث عدالة الله في الكون، وجب الإقرار بها إقرارا لا تلجلج فيه ولا اضطراب، إقرار انقياد و خضوع واقتراب، و هذا هو عين العبادة التي هي قوام إعمار الكون. فالعبادة من مستلزمات عدل الله الذي يعتبر النورسي إنكاره منتهى المحال، ومن ثم فإن علاقة العبادة بالعدالة الإلهية في هذا الوجه، هي علاقة اللازم بملزومه، وهي من أقوى أنواع العلاقات وأوثقها.

خامسا: العبادة تثمر العدالة الإنسانية

تقدم أن العبادة من مستلزمات العدالة الإلهية، وأن هذا من أوثق وجوه العلاقة بينهما، و نريد أن نقرر هاهنا أن العبادة أصل تتفرع عنه العدالة الإنسانية في العابد، فالرسوخ في العبادة و الإخلاص فيها يفضي لا محالة إلى تحقيق العدالة في العابد. وانتفاء الإخلاص في العبادة يفسدها، وفسادها يمنع من الوصول إلى العدالة، ويحول دون التوفيق إليها، يقول النورسي وهو يقرر هذه الحقائق: "إن الإخلاص واسطة الخلاص ووسيلة النجاة من العذاب، فالعداء والعناد يزعزعان حياة المؤمن المعنوية فتتأذى سلامة عبوديته لله، إذ يضيع الإخلاص.! ذلك لأن المعاند الذي ينحاز إلى رأيه وجماعته يروم التفوق على خصمه حتى في أعمال البر التي يزاولها، فلا يوفق توفيقا كاملا إلى عمل خالص لوجه الله. ثم إنه لا يوفق أيضا إلى العدالة، إذ يرجح الموالين لرأيه الموافقين له في أحكامه و معاملاته على غيرهم.. وهكذا يضيع أساسان مهمان لبناء البر: الإخلاص والعدالة بالخصام والعداء..."[٢٧]. وكثيرا ما ينوِّه النورسي في مثل هذا المقام بالصحابة رضوان الله عليهم وأنهم كانوا رواد الحق وعشاقه، تواقين إلى العدل والصدق، وما ذلك إلا لرسوخهم في العبادة وإخلاصهم فيها. [٢٨]

---

(٢٦) الكلمة العاشرة ص: ٩١. .
(٢٧) المكتوب الثاني والعشرون ص: ٣٥٠.
(٢٨) انظر الكلمة السابعة و العشرين ص: ٥٦٧.

سادسا: الجزاء من آثار عدل الله، وهو محرك للعبادة

سبق أن من آثار العدالة الإلهية: وضع الموازين القسط ليوم القيامة و نصب آلة الجزاء، وفتح باب الثواب والعقاب، وتوفية الخلق أعمالهم بالحق. و هذا كله من شأنه تحريك العبد في الدنيا للعبادة والأخذ بأسباب الطاعة والانقياد، والاستعداد ليوم المعاد، يوم تسود العدالة المطلقة بين العباد. ويقرر النورسي هذا الوجه من وجوه العلاقة بين العبادة والعدالة بشكل قوي في رسائل النور، ويبسط فيها الكلام عن جزاء الآخرة الذي هو من عدل الله، وعن أثره في تحريك الإنسان وإنهاض همته للعبادة، تحريكا عرضه القرآن الكريم في آيات كثيرة بأسلوب الترغيب و الترهيب، يقول النورسي وهو يقرر بطريقته البديعة هذا الوجه من العلاقة بين العبادة والعدالة: "أمن الممكن لحفيظ ورقيب يحفظ بانتظام وميزان ما في السماء والأرض، وما في البر والبحر، من رطب ويابس، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، أن لا يحافظ ولا يراقب أعمال الإنسان الذي يملك فطرة سامية، و يشغل رتبة الخلافة في الأرض، ويحمل مهمة الأمانة الكبرى؟ فهل يمكن أن لا يحافظ على أفعاله التي تمس الربوبية؟ ولا يفرزها بالمحاسبة؟ ولا يزنها بميزان العدالة؟ ولا يجازي فاعلها بما يليق به من ثواب وعقاب؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا". (٢٩)

سابعا: العدالة جمال الكون..والعبادة جمال الروح

العدالة الإلهية عنصر أساسي لقيام الكون وصلاح الدنيا والآخرة وهي من تجليات اسم الله (العدل) الذي استقامت له محتويات الكون علويه وسفليه، وخضعت لجماله و جلاله، واغترفت من أنواره و أسراره، يقول النورسي و هو يتحدث عن جمال العدالة الإلهية و أثرها في الاستقامة الكونية: "وانظر إلى الكون أجمع، لقد ضم العدل الإلهي جميع موجوداته تحت جناح ميزانه، ويديم موازنة الأجرام العلوية و السفلية، ويعطيها التناسب و التلاؤم الذي هو أهم أساس للجمال و يجعل كل شيء في أفضل وضع وأجمله، ويعطي كل ذي حياة حق الحياة، فيحق الحق و يحد من تجاوز المعتدين ويعاقبهم.. فشاهد الجمال الباهر، جمال هذه العادلية الإلهية"(٣٠).

وإذا كانت العدالة جمال الكون، فإن العبادة جمال الروح، فبها تصقل وبها تزكى، ومنها تستمد إشراقتها وينبوع جمالها.

---

(٢٩) الكلمة العاشرة ص: ٨١.

(٣٠) الشعاع الرابع ص: ٩٠. .

وبجمال الكون وجمال الروح تكتمل صورة الحياة، وتتكامل حقيقتها، حيث يتناغم فيها الشكل و المضمون، ويتناسق فيها الظرف والمظروف، ويتحد القلب والقالب..

ثامنا: الدنيا دار عبادة والآخرة دار عدالة

هذا وجه آخر من وجوه العلاقة بين العبادة والعدالة، وهو علاقة الزمان والمكان، حيث إن العبادة محلها وزمانها في الحياة الدنيا بأرضها و سمائها و برها وبحرها.. وأن العدالة الإلهية المطلقة تأتي للجزاء على عبادة العابدين، وكفر الكافرين وجحد الجاحدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهذا أمر يقرره النورسي في مواطن عديدة من رسائل النور ويؤكده بأساليب كثيرة، من ذلك قوله مثلا: "فلو لم يوجد ما لا يعد من الأسباب الموجبة لإعطاء السعادة الأبدية من الرحمة والعناية والحكمة والعدالة المشهودات – المتوقف كونها رحمة وعناية وحكمة وعدالة على وجود الآخرة – وكذا جميع الأسماء القدسية أسبابا مقتضية لها لكفى دعاء هذا الشخص النوراني لأن يبني ربه له ولأبناء جنسه الجنة، كما ينشئ لنا في كل ربيع جنانا مزينة بمعجزات مصنوعاته. فكما صارت رسالته سببا لفتح الدنيا للامتحان والعبودية. كذلك صار دعاؤه في عبوديته سببا لفتح دار الآخرة للمكافآت والمجازاة"(٣١).

تاسعا: العدل ولوازمه خلاصة العبادة

الذي نعنيه بالعدل هنا: عدل الإنسان في قوله وفعله ظاهره وباطنه، وفي أمره كله، هذا العدل المقتبس من تجليات عدل الله تعالى، هو الغاية القصوى التي يصل إليها الإنسان بالعبادة، فهو خلاصتها وزبدتها، وكل ما تعبَّد الله به عباده ينتهي بهم إلى العدل أو شيء من توابعه ولواحقه، وخلاصة ما كلف الله به الإنسان وأمره أن يعبده به: أن يقيم العدل، قال عز وجل يثبت هذه الكلية العظمى التي يقوم عليها الدين كله وتقوم بها العبادة في الإنسان) ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠) فكل ما هو عدل أو يقتضيه العدل مأمور به وجوبا أو ندبا. وكل ما يناقض العدل ويجافيه منهيٌّ عنه تحريما أو تنزيها، ولا تخرج العبادة عن شيء من ذلك.

---

(٣١) الكلمة التاسعة عشرة ص: ٢٦٢..

عاشرا: العبادة والعدالة ينتجان الاستقامة

تقدم أن رسوخ الإنسان في العبادة يورثه العدالة ويحمله عليها، ويجعل منه إنسانا عدلا سويا يأمر بالعدل ويمشي على صراط مستقيم، وباستمراره على ذلك وثباته عليه تتحقق فيه الاستقامة وتنجلي عليه أنوارها، وتفيض عليه أسرارها، وتتوالى عنده آثارها من قوة وتمكين... (٣٢)

خاتمة

تلك كانت جولة قصيرة مع بديع الزمان النورسي في العبادة والعدالة وعلاقة بعضها ببعض، وتجلياتهما على الإنسان والكون..

والنتيجة التي يمكن وضع اليد عليها مما أودعه في رسائل النور من فقه هذه العلاقة: أن صلاح الإنسان واستقامته وانضباطه واستعداده لعمارة الأرض مأتاه: العبادة المستقاة من ينبوعها الصافي.. وأن صلاح المجتمع واستقامته وانضباطه واستعداده لعمارة الأرض مأتاه: إقامة العدل وإشاعة أنواره.. ولا سبيل إلى العدل إلا بالعبادة. ومن ثم فبناء المجتمع الفاضل لا يتم إلا بهذين الركنين.. وفي رسائل النور مادة علمية تربوية كفيلة بصياغة الفرد المستقيم وبناء المجتمع المستقيم..

إن رسائل النور مدرسة فكرية تربوية مؤهلة - بما أودعه فيها إمامها بديع الزمان النورسي من فكره القرآني، واجتهاده النوراني - لتخريج عباد الله العابدين العادلين، جديرة بصياغة المنهاج التربوي الشامل الذي يدفع بالعالم إلى التي هي أقوم، ويسير به نحو الأفضل الأسلم.

(٣٢) انظر الكلمة العشرين ص٦٨٤ وص: ٦٨٧. اللمعة الثلاثون ص٥٢٦. .